واقع المثقف والمعارضة في الوطن العربي

أين المثقف العضوي العربي؟

. رمزي تفيحة* .

أسئلة المثقف

ما هو الدور الذي يُمْكن أن يمارسه المثقّفُ اليوم على المستوى الاجتماعيّ؟ ما هي المساحات التي استثمرها المثقّفُ في الحقل السياسيّ؟ ما هي الإضافة التي حقّقها المثقّفُ لترسيخ القناعة بضرورة الانفتاح اقتصادياً على الدول الأوروبيّة؟ هذه الأسئلة وغيرُها قد تَفْضي بنا إلى إجابات تَكْشف عمقَ الهوّة التي تَفْصل المثقّفَ عن محيطه.

في الممارسة السياسيّة

ففي مجال الممارسة السياسيّة يكاد يكون حضورُ المثقّف منعدمًا، باستثناء الدور الاستراتيجيّ الذي يمارسه التكنوقراطيُّون في توجيه سياسة الدولة وتحديد خياراتها، على الرُّغم من أنّ الدولة قد وفّرتْ مساحاتٍ رحبةً يُمْكن المثقّفَ استغلالُها وتأكيدُ حضوره الجادّ داخلها. ولا يُمْكن تفسيرُ هروب المثقّف العربيّ من الانخراط في اللُّعبة السياسيّة إلاّ بعجزه عن بلورة موقف ناضج تجاه القضايا المصيريّة التي تواجهها الدولة. فمجمل الآراء والتصوُّرات التي يصوغها المثقّفون اليوم هي تصوُّرات ارتجاليّة وعفويّة تَفْتقر إلى الدقّة من جهة، وإلى العقلانيّة في التعامل مع طبيعة المرحلة الانتقاليّة التي تعيشها المنطقةُ العربيّةُ من جهة ثانية. بل إنّ المعارضة السياسيّة التي يُفْترض أن تحقّقَ التوازنَ الهيكليّ على مستوى الممارسة السياسيّة تَفْتقر بدورها إلى النضج السياسيّ والمعرفيّ أحيانًا. ورغم توافر المنابر السياسيّة المختلفة التي يُمْكن المعارضةَ أن تعتمدَها لتحديد خياراتها واتّجاهاتها البديلة، فإنّ حضور هذه المعارضة يَبْقى حضورًا محتشمًا جدّاً. وقد نعزو هذا التراجعَ الوظيفيّ للمعارضة السياسيّة في مجتمعاتنا العربيّة الإسلاميّة الى جملة من العوامل أهمُّها:

أولاً: افتقارُ المعارضة في مختلف تلويناتها ومرجعيّاتها السياسيّة والثقافيّة إلى برنامج واضح ودقيق. وتتحدّد دقّةُ البرنامج ووضوحُه بمدى تمثُّله للعوامل المؤثِّرة في مسيرة المجتمع العربيّ التنمويّة، وبمدى اعترافه بالتأثيرات الخارجيّة التي تمارسها التحوُّلاتُ الحضاريّةُ العالميّة في تعديل خيارات السلطة الإستراتيجيّة. إنّ مسائل الهويّة والتعليم والديموقراطيّة والتنمية والشراكة الاقتصاديّة والأمنيّة هي من الأولويّات التي يَنْبغي تكثيفُ العناية بها في واقعنا العربيّ. غير أنّ المثقّف المتحزّب المعارض لم يعبِّر إلى اليوم عن استعداده الجديّ لبحثها بالكيفيّة التي يستطيع من خلالها أن يبلور تصوُّرًا مخالفًا (جزئيّاً أو كليّاً) للتصوُّر العامّ الذي تتبنّاه السلطة.

ثانيًا: عدم قدرة المعارضة السياسيّة على التخلُّص من الاعتبار الإيديولوجيّ الذي يحدّد خياراتها. فمعظم المثقفين المتحزِّبين المعارضين يَنْطلقون من قوالب إيديولوجيّة جاهزة يحاولون تطبيقَها، طوعًا أو قسرًا، على حالات اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة لا تَنْسجم عادةً مع المرجعيّات المذهبيّة التي يَنْطلقون منها. إنّ عَجْزَ المثقّف اليوم عن التحرُّر من سلطة الإيديولوجيا قد أسْهم في تعطيل المسيرة الحضاريّة التي يُمْكن أن يشارك في تفعيل نموّها. بل إنّ الخطاب السياسيّ المعارض الذي يُفْصح عن نفسه عبر قنوات إعلاميّة متعدِّدة لا يَخْرج عن أن يكون خطابًا مبتذلاً يَعْكس بؤسًا منهجيّاً ومعرفيّاً في التعامل مع الأحداث السياسيّة العربيّة أو يَجترّ مقولات إيديولوجيّة أثبتَ الواقعُ حتميّةَ مراجعتِها وتعديلِها.

ثالثًا: عجز المعارضة السياسيّة عن مواكبة النسق السريع للتحوُّلات الحضاريّة الراهنة التي تمرّ بها الدولة. ولعلّ الخبرة المحدودة للمعارضة السياسيّة في هذا المجال أن تكون عاملاً مركزيّاً من العوامل التي أدّت إلى تراجع الدور السياسيّ الذي قد يمارسه المثقّفُ العضويّ. ففي الوقت الذي نجد فيه تكنوقراطيّي الدولة

* ـ كاتب من تونس. يشتغل في المسائل الحضاريّة التي تُعنى بالتراث وعلاقته بالحداثة.

يبذلون جهدًا بالغَ الأهميّة في تعميق تصوّرهم للمسائل الجوهريّة التي تتعلّق بمصير الدولة، تَرْصد المعارضةُ السياسيّةُ تصوُّراتِ السلطة الرسميّة لا لنقدها وتعديلها من أجل إثرائها، بل للتعرّف على مدى مطابقتها للضوابط والقواعد التي تحدّد توجُّهها السياسيّ. وأحيانًا تسارع المعارضةُ إلى إبداء امتعاضها من هذه التصوُّرات دون أن تكون قد استوعبتْ فعلاً مضمونَها.

رابعًا: إنّ حضور المثقّف المعارض في مجال الفعل السياسيّ هو حضورٌ باهت. ففي الوقت الذي يُفْترض فيه أن تكون المعارضةُ حاضرةً وبقوّة في المنابر السياسيّة والملتقيات والندوات الفكريّة للانخراط في الجدل الفكريّ والسياسيّ بهدف إثرائه وتنشيطه، نَلْمس تراجعًا واضحًا من جانب المعارضة في حضور مثل هذه المنابر. ونَعْتقد أنّ هذا التراجع لا يبرِّره موقفٌ مبدئيٌّ من جانب المثقّف المتحزّب لمقاطعة مثل هذه القنوات، وإنّما هو إقرارٌ صريحٌ من جانب المعارضة بعجزها التامّ عن الانخراط في الجدل السياسيّ والفكريّ لضعف مقولاتها وافتقار طروحاتها إلى الدقّة والصرامة. وقد جاءتْ مناسباتٌ عديدةٌ برهنتْ فيها المعارضةُ عن فقرها المعرفيّ والمنهجيّ مقارنةً بالصرامة المنهجيّة والمعرفيّة التي تَطْبع المواقفَ الرسميّةَ للسلطة.

في الممارسة الاجتماعيّة

هذا على المستوى السياسيّ. أمّا على المستوى الاجتماعيّ فإنّنا لا نسجّل حضورًا فاعلاً ومؤثّرًا للمثقّف بقدْر ما نسجلّ موقفًا حاسمًا من قبله إزاء قضايا عديدة تمسّ وبشكلٍ مباشرٍ الواقعَ الذي نعيشه. ويُمْكن اختزالُ أسباب انحسار الدور الاجتماعيّ للمثقّف العربيّ في هذه النقاط.

أ ـ الإحساس المبالغ فيه من جانب نخبة من المثقّفين الأرستقراطيّين بأهميّة مركزهم الثقافيّ النخبويّ داخل مجتمعاتهم ـ وهو إحساسٌ يَشْعر من خلاله المثقّفُ بتضخُّم الأنا فيه، في مقابل انحسار الآخر وتراجعه. وطبقًا لهذا الشعور يتوزّع المجتمعُ في ذهن هذه الفئة من المثقّفين الى صنفيْن:

الصنف الأول تُمثّله النخبةُ التي تَصْنع الفعلَ الثقافيّ، وهي الفئة التي يتفاعل معها المثقّفُ ويبدي استعدادَه الجدّيّ للتعامل معها.

الصنف الثاني تمثّله عامّةُ الناس، وهو صنفٌ لا يتردّد المثقّفُ في التعبير عن امتعاضه الشديد من الاحتكاك به بحجّة عدم توفّره على النضج المعرفيّ اللازم الذي يؤهّله لاستيعابِ ما يريد المثقّفُ الإفصاحَ عنه. والغريب أنّ المثقّفين الذين يَرْفضون التواصلَ مع «الرعاع» يُعبِّرون عن ابتهاجهم الكبير عندما تَلْقى أعمالُهم ترحيبًا واسعًا من جانب الجمهور العريض من الناس؛ ولكنْ إذا بادر أحدُهم إلى توجيه نقده إلى عملٍ من هذه الأعمال سارع المثقّفُ إلى صدِّه وذلك بتأكيده أنّ النقد ممارسةٌ صارمةٌ ودقيقةٌ لا يَضْطلع بها إلاّ أهلُ الاختصاص! إنّ هذا الصنف من المثقّفين قد أَسْهم إلى حدٍّ كبير في تعميق الهوّة بين ما هو نخبويّ وما هو شعبيّ، وأَسْهم في الحدّ من انتشارِ ما هو ثقافيّ في أوساط القاعدة الشعبيّة العريضة.

ب ـ افتقار القاعدة العريضة من المثقّفين «الشعبيّين» إلى الآليّات والأدوات التي من شأنها أن تفعّل التواصل بينهم وبين العامّة من جهة، وبينهم وبين المثقّفين «الأرستقراطيّين» من جهة ثانية. إنّ فئة المثقّفين الشعبيّين قادرةٌ على ممارسة نشاطها الإبداعيّ وتوجيه الفعل الثقافيّ، وهي قادرة أيضًا على أن تكون الجسرَ الرابطَ بين طبقة المثقّفين الأرستقراطيّين والعامّة من الناس، فتكون بذلك الحلقةَ التي يتصالح عَبْرَها ما هو نخبويٌّ مع ما هو عاميٌّ. على أنّ هذا الدور لا يتحقّق إلاّ عبر دراسة جديّة ومعمّقة لاحتياجات هذه الفئة والتعرُّفِ على ما به يتحقّق استمرارُ نشاطها وتواصلُه. فالمثقّف الذي لم يتوصّلْ بعدُ إلى تحقيق مستلزمات بقائه واستمرار وجوده لا يمكن أن يكون ذلك المثقّفَ المبدعَ والفاعل. إنّ المثقّف الجائع والمتشرِّد لا

إنّ المثقف العضوي هو الوحش الذي تحدّث عنه سارتر: يهتمّ بما يعنيه، في الوقت الذي يرى فيه الآخرون أنّه يهتمّ بما لا يَعْنيه

يُمْكن أن يتحرّكَ حتى نطالبه بأن يحرّك غيرَه. أمّا المثقّف الذي تمكّن من توفير ضروريّات عيشه وبقائه فإنّه لا يتردّد في التعبير عن قبوله المتاجرةَ بذلك الكمّ الثقافيّ الذي حصّله في مقابل بعض الدنانير، الذي قد تتبخّر في مجالسَ خمريّةٍ يسامرُ فيها مَنْ يقاسمهم الهمّ نفسَه.

ج ـ التفاعل المحتشم والباهت للمثقّف مع شبكة العلاقات الاجتماعيّة والنسيج الجمعيّاتي والمؤسّساتي. إنّ الانخراط في العمل الجمعياتيّ من شأنه أن يقرّب وجهاتِ النظر، فضلاً عن أنّه يُسْهم في تعديل المواقف وتأسيس منابر قد يثير من خلالها المثقّفُ أسئلةً تستفزّ المتقبّلَ وتَدْفعه إلى البحث ومساءلة الذات.

د ـ عجزُ المثقّف عن التحرُّر من سلطة السائد والمألوف، واعترافُه في مناسبات عدّة بعدم قدرته على مواجهة كلّ ما هو أسطوريّ، واستسلامُه لبعض الأعراف الاجتماعيّة التي كان هو نفسُه ينادي بالقطيعة معها.

غياب المثقف العضويّ عامّةً: الأسباب

وإذا كانت هذه هي حالَ المثقّف في الحقلين السياسيّ والاجتماعيّ فإنّ وضعيّة المثقّف فكريّاً وثقافيّاً تدعو هي أيضًا إلى المراجعة. ذلك أنّ الصورة التي نَرْسمها للمثقّف العضويّ تكاد تكون بعيدةً عن الواقع الذي يعيشه. إنّ المثقّف العضويّ هو ذاك الذي يَصْنع الفعلَ الثقافيّ ويُسْهم في تنشيطه؛ إنّه الوحش الذي تحدّث عنه سارتر: يهتمّ بما يعنيه، في الوقت الذي يرى فيه الآخرون أنّه يهتمّ بما لا يعنيه. إنّه المثقّف الذي لا تخيفه المحرّماتُ، وهو المثقّف الذي تحرّر من هاجس السيطرة ليقينه أنّ ذلك هو البداية الفعليّة للمعرفة. هذا المثقّف الذي نَبْحث عنه قد لا نجده في مجتمعاتنا العربيّة الإسلاميّة بسبب العوامل التالية:

١ ـ لم يتمكّن المثقّفُ، عامةً، إلى اليوم من استيعاب مستلزمات الحداثة الفكريّة، بل يؤكّد الواقعُ يوميّاً حدّةَ القطيعة التي تَفْصل المثقفَ العربيّ عن الكشوفات المعرفيّة والفكريّة التي تُنْتجها الحداثةُ يومًا بعد يوم. وتحرّكُ هذا الخللَ في تصوُّرنا ثلاثةُ عوامل مركزيّة:

أ ـ غيابُ موقفٍ واضح وصريح من التراث من جهة، ومن الحداثة من جهة ثانية. فكيف يُمْكن أن ندعو اليومَ إلى تفعيل الحداثة الفكريّة في مجتمعاتنا العربيّة في الوقت الذي لم يحدِّد فيه العقلُ العربيُّ تصوُّرَه الدقيقَ والصارمَ من تراثه وماضيه؟ وإذا ما استعرنا التقسيمَ الذي أقامه الجابري في كتابه **نحن والتراث** قلنا إنّ المثقّف العربيّ عامةً لم يدشّنْ بعدُ مرحلةَ «الفصل،» وهي المرحلة التي يقع من خلالها تفكيكُ النصوص التراثيّة بهدف نقدِها وإعادةِ بنائها بالشكل الذي يمكّننا من فهم النصّ وفحصِ طبقاته المعرفيّة والإيديولوجيّة والسياسيّة. إنّ المثقّف لم يدشّنْ بعدُ هذه المرحلةَ حتى نطالبه بالانخراط جديّاً في مرحلة «الوصل،» وهي المرحلة التي يتمكّن فيها العقلُ العربيُّ من الدخول في دائرة الإبداع والإنتاج والتأسيس في جميع مستوياتها الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. إنّنا نَعْتقد أنّ المشكل الذي يواجه المثقفَ اليومَ لا يَكْمن في ما يَحْدث أمامَه، بل في هذا الضباب القديم الذي يملأ رأسَه.

ب ـ العزلة التي يَفْرضها المثقفُ، عامةً، على نفسه. فكثير من مثقفينا منقطعون عن الفعل الثقافيّ الذي يُنْتجه الآخرُ، ويَرْفضون الاطّلاعَ على الكشوفات المعرفيّة التي يحقّقها الغربُ في شتّى الاختصاصات والميادين الثقافيّة. وبغضّ النظر عن الاعتبارات الإيديولوجيّة التي تقف وراء هذا الموقف، فإنّ هذا التصوُّر يحتاج إلى مراجعة جذريّة تتحقّق عبرها القناعةُ بأنّه لا يُمْكن تجاوُزُ تحدّيات المرحلة الراهنة من دون الانفتاح معرفيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً على الآخر، بما يمكّن من تفعيل الدور الحضاريّ للمثقّف داخل المجتمعات العربيّة الإسلاميّة.

ج ـ الضعف المنهجيّ والمعرفيّ الذي يَطْبع مقالات كثير من المثقفين وخطاباتهم، وهو ضعف يبرِّره اهتمامُ

المثقف المبالغُ فيه أحيانًا بمشاغل الحياة اليوميّة ومستلزماتها، بما يجذِّر تلك القطيعة بينه وبين الشأن الثقافيّ.

٢ ـ لم يُبْدِ المثقّف العربيّ إلى اليوم استعدادَه الجدّيّ للتفاعل إيجابيّاً مع فكرة النقد. فإذا كان النقد تقليدًا راسخًا في المجتمعات الأوروبيّة فإنّه في مجتمعاتنا العربيّة شكل من أشكال الهرطقة والابتداع. إنّ تجذُّر فكرة النقد في المتخيَّل الأوروبيّ أَسْهمتْ فيه جملةٌ من العوامل السياسيّة والثقافيّة والدينيّة عرفتْها المجتمعاتُ الأوروبيّةُ قبل الثورات الثلاث الكبرى (الفرنسيّة والإنكليزيّة والأميركيّة) وأثناءها. وقد ساعدتْ هذه الثوراتُ من خلال الجهد النظريّ البالغ الذي بذله منظِّروها ومؤسِّسوها على التخلُّص ممّا هو ميّت ومتخشّب في كيانها، وعلى تأسيس ثقافة عقلانيّة واعية بظروف المرحلة التي تمرّ بها. إنّ هذه العوامل الموضوعيّة التي زرعتْ بذورَ الفكر النقديّ في المجتمعات الأوروبيّة لم تتوفّر بعدُ في مجتمعاتنا الإسلاميّة. ولا يُمْكن، في اعتقادنا، الحديثُ عن بوادر نهضة فكريّة وعلميّة يمكن أن تعيشها المجتمعاتُ العربيّةُ إلاّ في ضوء توفُّر العوامل التي عاشتها المجتمعاتُ الأوروبيّةُ ومهّدتْ لتحقيق نقلة نوعيّة وحضاريّة داخلها.

إنّ النقد الذي نَسْعى إلى تدشين حضوره هو الشرط الجوهريّ لكي تَسْتعيد الذاتُ العربيّةُ الإسلاميّةُ ثقتَها بنفسها وتحقّق من ثمّ استقلاليَّتَها. يقول الجابري: «إنّ نقد العقل جزء أساسيّ من كلّ مشروع للنهضة، ولكنّ نهضتنا العربيّة الحديثة جرت فيها الأمورُ على غير هذا المجرى. ولعلّ ذلك من أهمّ عوامل تعثُّرها المستمرّ إلى الآن. وهل يُمْكن بناءُ نهضة بعقلٍ غيرِ ناهض، عقلٍ لم يقم بمراجعة شاملة لآليّاته ومفاهيمه وتصوُّراته ورؤاه؟»

٣ ـ غياب القراءة العقلانيّة والموضوعيّة الناضجة في مشاريع المثقّفين العضويِّين، في مقابل الحضور المكثَّف والنشيط للقراءات الإيديولوجيّة التي نجحتْ إلى حدّ كبير في تهميش الفعل الثقافيّ والممارسة النقديّة الواعية في مجتمعاتنا. إنّ حاجة المجتمعات العربيّة إلى مثل تلك القراءة الموضوعيّة والعقلانيّة تتأكّد في الواقع يومًا بعد يوم، وذلك بفعل الهجمات العنيفة التي يشنُّها الفكرُ الاستبعاديُّ في مختلف مرجعيّاته المذهبيّة ـ وهي الهجمات عينُها التي عرفها التاريخُ الإسلاميُّ حينما بادر العقلُ السنّيُّ إلى استبعاد مؤلّفات ابن رشد وتهميش الدور النشيط الذي مارسه الخطُّ الاعتزاليُّ في إرساء دعائم التفكير العقلانيّ في الإسلام. وإنّنا اليوم مدعوّون إلى استعادة النظر في مثل هذه المدارس، والاستفادةِ منها بالشكل الذي يمكّن من تأسيس قراءةٍ تتسلّح بمتطلّبات المنهج العقلانيّ والموضوعيّ في دراسة الماضي والحاضر على حدّ سواء.

٤ ـ افتقار المثقف العربيّ عامّةً إلى النضج المنهجيّ في التعامل مع الأحداث. فكثيرًا ما يسارع المثقّفون إلى التعبير عن استحسانهم أو عن امتعاضهم من بعض المسائل أو المواقف دون أن يَعْكس هذا الاستحسانُ أو الامتعاضُ تمثُّلاً واعيًا لطبيعة المسألة المثارة أو الموقف المطروح. إنّنا لا نريد من المثقّف أن يقدّم لنا حلولاً سحريّةً أو إجاباتٍ جاهزةً بقَدْر ما نريد منه أن يثير أسئلةً تستفزّ القارئ فتحرّك أوجاعَه وتولِّد فيه القلقَ الذي يَدْعوه إلى مساءلة ذاته والانخراط في استعادة نقديّة جادّة لبعض مسلّماته وبدهيّاته. إنّ مثل هذا المنهج التقدُّميّ التراجعيّ يساعد على تشكيل بنْية جديدة للعقل العربيّ الإسلاميّ تكون قادرةً على مواجهة أسئلة الحداثة والإسهام فعليّاً في بلورة قراءة جديدة للتراث الإسلاميّ.

هذه بعض ملامح الواقع الذي يعيشه المثقّفُ في مجتمعاتنا العربيّة الإسلاميّة، وهي ملامح تؤكّد الحاجةَ إلى مراجعة جذريّة يسائل من خلالها العقلُ العربيُّ الإسلاميُّ واقعَه وذاتَه، لأنّ هذه المساءلة هي في اعتقادنا البدايةُ الفعليّةُ لمسيرة الحداثة التي يمكن أن يدشّنَها المثقّفُ العربيُّ.

تونس